



بيداغوجيا الخطأ

مفاهيم تربوية

ذ. فضيل نصري¹

نبحث في هذه الورقة الخطأ وبيداغوجياه باعتبارهما يحوزان، كلاهما، وضعاً اعتبارياً خاصاً في الأدبيات التربوية التقليدية والحديثة، مع فوارق تكبر حيناً وتصغر حيناً آخر، وتبدو أحياناً وتلطّف أخرى. فالخطأ في البيداغوجيات التقليدية منبوذ، وغير مقبول، وهو خطيئة حتى! لا يسمح للمتعلم بالوقوع فيها، وهو [أي الخطأ] في بعض فروع البيداغوجيات التقليدية [وهذا في أحسن الأحوال] مسموح به مؤقتاً على ألا يتكرر.

أما فيما يتصل بالبيداغوجيات الحديثة، فيختلف الأمر، إذ لم يعد الخطأ شيئاً عادياً وبديهيّاً فحسب، بل غداً أمراً أساسياً ومطلوباً في بناء أي تعلم كيفما كان نوعه وكيفما كانت طبيعته. لأجل مركزية الخطأ هذه، ولأجل أن الخطأ وارد محتمل أبداً في أي سيرورة تعليمية، ولأجل اختصاصه وتفرد بيداغوجيا خاصة تُنبئُ "بيداغوجيا الخطأ"، ارتأينا أن نقاربه ونبحثه كيما ننير ما ادلهم من غياهبه، وننفذ عنه بعض ما علق به من أتربة، ولنخرجه من "الجلوة الخلوة" إلى "الجلوة الجلوة".

وخطتنا في هذه المقاربة العجلى تتوزعها مطالب ثلاثة هي كالآتي:

- (1) تعريف الخطأ.
- (2) البيداغوجيا التقليدية ومقاومة الخطأ.
- (3) البيداغوجيا الحديثة ورد الاعتبار للخطأ.
- (4) خلاصة.

¹ باحث بمركز تكوين مفتشي التعليم بالرباط

تعريف الخطأ

يجمل بنا في هذا المطلب أن نبدأ بتحديد ماهية الخطأ في اللغة أولاً ثم ننتهي إليها [ماهية الخطأ] في الاصطلاح البيداغوجي.

ففي لسان العرب: «أخطأ الخطأ، والخطأ ضد الصواب، والخطأ ما لم يتعمد، والخطأ ما تُعْمَدُ، وهو بعد [أي الخطأ] حالة ذهنية/فعل عقلي يعتبر صائبا ما هو خاطئ أو العكس⁽²⁾.

يتبين من هذا التحديد إذن أن الخطأ حالة وفعل لإرادي يقع عفوا من المخطئ الذي قد يتبين خطأه وقد لا يتبينه، فيرصده من هو أعلم وأكثر خبرة منه، كما أن المادة اللغوية «خ.ط.أ» تحيل على التصور والحقل الدينيين اللذين يَفْقِدان علاقة بين الخطأ والإثم، بل والخطيئة الأولى.

والخطأ بما هو لإرادي وعفوي يطول جميع أنواع المعرفة؛ أي ذات الطبيعة النظرية، وكذا التي تنصبغ بالصبغة العملية المهارية، والبيداغوجيا بوصفها معرفة لا تشذ عما قلناه، والخطأ فيها يمكن أن يقع فيه المتعلم كما المدرس، ويتم رصده بواسطة ما يسميه الباحث "العربي السليمانى" بالهندسة الديداكتيكية للخطأ⁽³⁾.

وينصرف الخطأ في الاصطلاح إلى "القول عما هو غير كائن بأنه كائن، أو عما هو كائن بأنه غير كائن"⁽⁴⁾. ولأهمية الخطأ في المعارف العامة وفي البيداغوجيا خاصة، خُصَّ ببيداغوجياه [بيداغوجيا الخطأ]، وهي خطة بيداغوجية تركز على افتراض صعوبات ديداكتيكية، تواجه المتعلم أثناء القيام بتطبيق التعليمات المعطاة له ضمن نشاط تعليمي معين، وتتجه في أحد مستوياتها إلى الوقوف على أسباب الخطأ سواء من منطلق التصور القبلي حوله أو على مستوى لحظة التعليم⁽⁵⁾.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن هناك فروقا بين بيداغوجيا الخطأ وبيداغوجيا أخرى تضاف إلى الغلط، وقد عرفها عبد الكريم غريب ومن معه في معجم علوم التربية بأنها "عملية تشخيص أغلاط التلاميذ، وبالأخص الأغلاط اللغوية، وتحليلها قصد تمييز أنواعها والكشف عن أسبابها، ووتيرة تكرارها،

² - لسان العرب، ابن منظور، مادة (خطئ) .

³ - الكفايات في التعليم، من أجل مقارنة شمولية، العربي السليمانى، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، [ط.1]، 2006، ص.139.

⁴ - دينامية الخطأ دينامية الخطأ في سيرورة التعليم والمعرفة، العربي السليمانى، مجلة علوم التربية، المجلد الثالث، ع.24، مارس 2003، الرباط المغرب، ص.132.

⁵ - الكفايات في التعليم، مرجع مذكور، ص.139.

وبحث سبل معالجتها⁽⁶⁾. وتستند هذه البيداغوجيا إلى مبادئ السيكلوسانيات التقابلية والسوسيولسانيات، ومن الباحثين الذين اهتموا بتحليل الأخطاء لدى المتعلم نذكر: "لافوا سيروا"، و"سكالون"، و"جاردني"، و"تسوكا".

البيداغوجيا التقليدية ومقاومة الخطأ

لا نتكبد عن الحقيقة إن قرنا البيداغوجيا التقليدية بفعل مقاومة الخطأ، لأنها تعدّه بمنزلة "الحوب" و"الكبيرة" لا يحق للمتعلم أن يقتربها البتة، ولذلك كان المدرس التقليدي المتسلط، والذي يزعم لنفسه الإحاطة والإلمام الشامل بالمعرفة، يعنف المتعلم ويشهر في وجهه سيف القمع إذا ما أخطأ، مما يجعل هذا المعنف المقموع يُحجم وينكص على عقبيه، وينسحب من العملية التعليمية لحظة تعنيفه، وربما امتد انسحابه إلى ما بعد اللحظة تلك.

فالخطأ في أساليب التربية التقليدية غير مسموح به، وهو منبوذ لأنه يشكل ضرباً من الشطط عن القاعدة/المعيار، التي وُضعت في الأصل لتحتذى وتتبع.

ولكن هذا كله يقفز على الطبيعة الإنسانية، وضمنها طبيعة المتعلم "الخطاءة" دوماً في بنائها لمعارفها، فالمتعلم لا يأتي إلى الفصل وذهنه خال من أي معرفة، بل يختزن ذهنه بالضرورة تمثلات ومعارف أولية، قد تتناغم مع المحتوى الديداكتيكي باعتباره معرفة "معيّارة"، وقد تشد عنه، وفي هذه الحالة يتدخل المدرس ليصحح ويعدل ويكمل ما أعوزه التصحيح والتعديل والتكميل.

ثم إن أخطاءنا في التعلم جزء من تاريخنا الشخصي⁽⁷⁾، فالخطأ ليس معطى ينبغي إقصاؤه، وإنما هو نقطة انطلاق المعرفة العلمية باعتبار هذه الأخيرة لا تبدأ من درجة الصفر، بل إنها تصطدم بمعرفة أولى سابقة وتجارب يستقبل بها المتعلم المعرفة الجديدة، فالخطأ من وجهة النظر هاته حق مشروع للمتعلم، لأنه أمر بدهي وليس بدعا في منطق التعلم، وهذا ما سنراه في المطلب الموالي.

⁶ - المرجع نفسه، ص. 139.

⁷ - الأهمية البيداغوجية لمفهوم العائق الإيستيمولوجي، ميشيل سانر، ترجمة: عبد العزيز الغرضاف، مجلة ديداكتيكا، ع. 3، دجنبر 1992، الجديدة،

المغرب، مقدمة المترجم، ص. 14.

البيداغوجيا الحديثة ورد الاعتبار للخطأ

كيف نفهم لماذا لا يفهم المتعلم؟ سؤال مركزي طرحه باشلار، ويشكل الأساس لإدراك عمق حضور الخطاب الإبتيمولوجي داخل التربية، ويمت هذا السؤال بصلات كثيرة إلى ما يدعوه باشلار: العائق الإبتيمولوجي⁽⁸⁾.

لقد تنبه باشلار إلى أهمية الخطأ ودوره الإيجابي في نشأة المعرفة/التعلم حين أقر بأن المكان المفضل للخطأ هو العلم وبأن الخطأ في النشاط العلمي ليس حدثاً أو حادثاً يمكن إلغاؤه بشيء من الانتباه والحذر، وأنه سابق وأولي، وأن الحقيقة في العلم ليست سوى خطأ مصحح أو معدل⁽⁹⁾.

نخلص مما تقدم إلى أن المعرفة عموماً والتعلم المدرسية قائمة على ما يسميه "بول" مبدأ المحاولة والخطأ، هذا المبدأ الذي يستبطن تمثلات ومعارف أولية، يبني المتعلم تعلماته/معارفه على أنقاضها، أي يهدم ما لم يحسن بناءه⁽¹⁰⁾، ويتساق هذا ووجهة نظر "إدغار موران" في التربية والتعليم التي ليست البتة محاربة الأخطاء ولكنها الكشف عن مصادرها⁽¹¹⁾.

ويلج باشلار على ضرورة التمييز بين أخطاء ليست سوى "سهو لكل ذهني" وبين "الخطأ الإيجابي" و"الخطأ المفيد"، و"الخطأ العام"، و"الخطأ العادي"⁽¹²⁾؛ ومصادر الخطأ البيداغوجي متعددة نذكر منها:

- الأخطاء ذات المصدر النشوي: أي تلك الناتجة عن عدم قدرة التلميذ على فهم واستيعاب بعض المعارف بسبب كونها غامضة أو معقدة، وبسبب كونها لا تناسب مستوى نضجه المعرفي، وتفوق قدراته العقلية والوجدانية.
- الأخطاء ذات المصدر الإبتيمولوجي: يرى باشلار أن العقل البشري ليس صفحة بيضاء، لأن التلاميذ كيفما كان سنهم يُكوّنون تمثلات للأشياء والظواهر المحيطة بهم، كما يتمثلون المفاهيم والمصطلحات التي تصادفهم في مسارهم التعليمي.

⁸ - المرجع نفسه، ص. 17.

⁹ - دينامية الخطأ...، مرجع مذكور، ص. 133.

¹⁰ - المرجع نفسه، ص. 139.

¹¹ - المرجع نفسه، ص. 133.

¹² - الأهمية البيداغوجية لمفهوم العائق...، مرجع مذكور، ص. 16.

- الأخطاء ذات المصدر الديدكتيكي: وهي المرتبطة بطبيعة المحتويات الدراسية والطرائق البيداغوجية والوسائل الديدكتيكية التي يتبعها الأستاذ، ومن هذه الأخطاء تلك المتولدة عن سوء الفهم وضعف التواصل بين طرفي العملية التعليمية التعلمية. ومن عوائق التواصل التربوي؛ فارق السن، تحدث الأستاذ بلغة تفوق مدارك المتعلم، أو أن يتحدث بسرعة أو بلحن وتلعثم.
- الأخطاء ذات المصدر التعاقدي: وتنتج عن خرق أحد الأطراف لشروط العقد البيداغوجي، فحينما لا يُعرَفُ الأستاذ المتعلم بواجباته وحقوقه فإنه يحتمل جداً أن يقع في الخطأ⁽¹³⁾.

خلاصة:

- ننتهي من خلال ما تقدم إلى جملة أمور هي:
- أن الخطأ مُكوّن أساس لكل معرفة ممكنة وكل تعلم ناجح.
 - أنه لا وجود البتة لحقيقة بريئة براءة كلية من الخطأ.
 - أن الصواب، يمر دائماً، من النفق نفسه الذي يسكنه وحش الخطأ مثلما يذهب إلى ذلك هيغل.
 - أن أكبر عملية في الدعم البيداغوجي هي عملية تحليل الأخطاء التي تحصل في التعلم.

¹³ - الكفايات في التعليم، مرجع مذكور، ص. 139-140.